أهمية مخطوط "لقطة العجلان في شرف سيدي عبد القادر بن زيان" في تاريخ الجزائر الحديثة

بقلم أ/ أحمد الحمدي

تمهيـــــد:

يندرج هذا المخطوط الذي يقع في ثلاث ورقات فقط، في إطار كتب الأنساب الذي درج أغلب مؤليفها عل انتهاج أسلوب المدح أحيانا، أو نهج التشهير في مرات عديدة. لأن مناسبات وضع هذه التآليف، غالبا ما تكون في فترات الفتن والمشاغبات بين القبائل والعشائر. لذلك يجب على الباحث عند تناوله لمادتها الاحتياط، وأن يفترض دوما بأن المؤلف يريد خداعه. فالباحث لا يدرس الوثيقة لذاتها، بل يقصد تحصيل الماضي عن طريقها. وبذلك يصل إلى المسعى الحاسم وهو ولوج جوهر المعرفة التاريخية. وغاية ما يريده مدعوا النسب هو الوصول إلى النسب الشريف أي عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

علم الأنساب في بلاد المغرب والأندلس:

إن قلة عدد العرب الصريحي النسب فيها بعد أن تعقد المجتمع المغربي وأصبح يتكون من أخلاط بشرية غير منظمة مما تترتب عليه قيام طوائف جنسية مختلفة تقوم على العصبية. فأوجد هذا الوضع مادة خصبة لعلم الأنساب ودافعا هاما للتصنيف في مجاله فألف العديد من المؤرخين كتبا في هذا العلم من أمثال عبد المالك بن حبيب، وأحمد الرازي، وابن حزم الظاهري، وابن عبد البر.

اسم ونسب المؤلف:

هو محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي المعسكري الجزائري. يقدّم تعريفا عن نفسه فيقول: أنا عبد ربي محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل. وهذا النسب متصل إلى إدريس بن عبد الله الكامل.

لقد قيل في وصفه بأنه كان متوسط القامة، نحيف الجسم أبيض البشرة، خفيف اللحية، صغير العينين، طويل الأنف، كبير الرأس. ولعل كنيته أبو راس قد لصقت به لذلك. وإن أبرز لقب رافق أبا راس بن الناصر هو لقب الحافظ. وقد اشتهر به لغزارة علمه. وإلى الفكرة نفسها يذهب محمد بن علي السنوسي دفين ليبيا إذ يقول: ومنهم شيخنا وشيخ مشايخنا الهمام الحافظ الإمام سيدي محمد أبو راس المعسكري. ولسرعة حافظته كانت تقع له بعض المواجهات مع تلامذته يقول صاحب فهرس الفهارس: أن جماعة من تلامذته

تذاكروا في قوة حافظته وكأنهم اتهموه بالاختلاق. ويبدو أن أبا راس كان معتدا بهذا اللقب أي الحافظ، يقول:« ثم وفدت على السلطان سليمان فأهديت له نسخة من الأكبر فأجازني إجازة سنية واشتهرت في مدينة فاس ولقبوني بالحافظ». وقد ترجم لنفسه في كتابه: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته[1]. وترجم له العربي المشرفي في الحسام. والشيخ الحفناوي في تعريف الخلف. وعبد السلام بن سودة في دليل مؤرخ المغرب الأقصى. وعبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس. والراشدي في النثر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. وصاحب معجم المؤلفين. وكذلك المجلة التاريخية المغربية عدد 53- 54 يوليوز 89. وسعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي 2/ 390.

ويشير في كاتبه الحلل السندسية أن:« الفرق بين زناتة والبربر مع أن الكلّ عجم. أن زناتة نسبة لجان بن أزنات من بني واسين. وكلّ أهل غريس منهم أي من بني واسين ولوماني وأفريني ومغراوي حتى بني زيان وبني مرين ومروان»[2].

وكل أفكاره في العجالة منقولة من عند التنسي. يقول أبو راس:« وحاصل أمر بني عبد الواد أنهم كانوا بصحراء تلمسان أهل بادية من جملة بني واسين من زناتة». وقد ألّف الحافظ التنسي كتابا سماه الدرر والعقيان في شرف بني زيان وذكر أن بني عبد الواد اثنا عشر قبيلة. وكان شيخهم لّما ضعف كرسي بني المؤمن، جابر بن يوسف ابن عم زيان[3].

وقد عقد عبد الرحمن بن خلدون عدة فصول في مقدمته ربط فيها بين العصبية والنسب. قال صلى الله عليه وسلم: تعلموا من أنسابكم ما تصلون به

أرحامكم. بمعنى أن فائدة النسب هي في الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة وما فوق ذلك مستغني عنه. ومن هذا الاعتبار معنى قولهم: النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر. بمعنى أن النسب إذا خرج عن هذه الفائدة أو ما في معناها، سقط المهتم به في النعرة التي تؤدي إلى العصبية وحينئذ لا منفعة فيه.

وأشار ابن خلدون إلى أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلّموا النسب ولا تكونوا كنبط لسّواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا.

وقد تأثر الناصر بالحافظ التنسي الذي أشار في مستهل كتابه إلى نهوضه في خدمة السلطان محمّد المتوكل لما كان: (من جملة من غمرته ألاؤه، وتوالت عليه نعماؤه، وألبسه منه حللا ضافية). وقد بذل جهوده كلها في خدمته قائلا: (واستعملت في ذلك مارجوت أن يكون نافقا من بضاعتي). إلى أن قال: (عسى أن أقوم ببعض واجب حقه عليّ). وماذا فعل لشكر ولي نعمته لما أولاه من معروف؟ قال: (فعزمت جعل الله الملك فيه وفي عقبه أبديا على الجمع له تصنيفا يكون ملوكيا)[4].

ولم يذكر المؤلف أنه عزم على تصنيف الكتاب بطلب من السلطان أو من أحد وزرائه أو أحد المقربين من البلاط. وكان هدف التنسي تقديم كتاب للسلطان يشتمل على التعريف بنسبه، وسلفه الكريم، وبيان شرفه في الحديث والقديم، متبعا بجملة صالحة من مناقب الملوك ومآثرها.

فهل أراد التنسي حقيقة بمجموع كتابه أن يصنف تحفة أدبية لتسلية السلطان وقد خصص شطرا منها لإثبات شرفه والتحدث عن أجداده من قريش وآل البيت. والأدارسة الذين جعل بني زيان من سلالتهم كما سيلاحظ؟ هذا ما يظن الباحث ويؤكد ما يذهب إليه، كلام المؤلف الذي أورده الباحث آنفا، وقد قال فيه أنه عزم على شكر السلطان، بالجمع له تصنيفا يكون ملوكيا أدبيا. وهل يكون تصنيف كتاب ملوكي أدبي يقدم لسلطان لغير المرح والتسلية[5].

إن أهم مصدر اعتمد عليه المؤلف لتدوين الباب السابع في بيان شرف بني زيان، هو بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد وما حازه مولانا أبو حمو من الشرف الشاهق الأطواد ليحي بن خلدون. ومن مصادر الباب كذلك، كتاب زهر البستان في دولة بني زيان لمؤلف مجهول[6].

ويرى يحي ابن خلدون أن بني عبد الواد من زناتة، حيث يقول:« ولما كان انتماء بني عبد الواد أعزهم الله إلى زناتة البربر، وجب أن نعرّف أولا بالبربر وبعيص زناتة منهم، حسب الوسع إن شاء الله»[7].

واختلف النسابون في أصل البربر، قال السهيلي، والمسعودي، والقضاعي، هم ولد بربر بن كنعان بن حام، وقال الطبري مثله، وزاد أيضا أنهم من ولد بربر بن نفسان بن إبراهيم الخليل عليه السلام. وزعم بعض المؤرخين أنهم من ولد سام بن نوح عليه السلام.

وملوك تلمسان هما فخذان: بنو عبد الواد، وبهذا الاسم عرف الجميع، تغليبا، وأصله عابد الوادي، رهبانية عرف بها جدهم من ولد سجيح بن

واسين بن يصليتين بن مسري بن زكيا بن ورسيج بن مادغيس الأبتر بن بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فيما نمى إلى علمي، منقولا من تاريخ ابن الفياض وسواه. وقد بان لك أنهم عرب صحراء، وأن لهم في زناتة الفضل المتقدم والشرف المعروف، رضي الله عنهم.

والفخذ الثاني: هم بنو القاسم من ولد ادريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قيل هو القاسم بن إدريس، وقيل ابن محمد بن إدريس، وقيل ابن القاسم بن إدريس، وقيل ابن ممد بن عبد الله بن إدريس، وهو أحب إليّ، لاشتهاره وإجماع المشيخة عليه، وأنسبها عند اعتبار الزمان لانقراض دولة الأدارسة.

وذلك أنه لما تغلب جيش المنصور بن أبي عامر ثانية على الحسن بن قنّون بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس، آخر ملوك الأدارسة، وأنزله من قلعة النسر على حكمه وأجازه البحر إليه ثم أعرض من قتله سنة خمس وسبعين وثلاثمئة (375 هـ)، افترق بنو أبيه غربا وشرقا وشمالا وجنوبا، فكان القاسم هذا ممن أصحر وانضاف إلى قبيل بني عبد الواد، فأكرموا نزله ومثواه، وعظموا قدره وشرفه، وحكموه بينهم في الشرائع، وانقادوا عن آخرهم إلى طاعته، فتزوج فيهم ونسل بينهم ذرية كثيرين، استشعروا زيهم وتخلقوا بشجاعتهم ثم اختاروا إمرتهم، فتوارثها خالفهم عن سالفهم وتيامن بهم القبيل[8].

قلت: ولا يسع أخا هوى الطعن في هذا النسب الكريم، لأنه من الشهرة بالآفاق والفشو في القبائل والأحياء، بحيث لا يحجبه بعد دار، ولا يجحده لسان عدو فضلا عن صديق.

وفي المشهور من مذهب إمام دار الهجرة، رضي الله عنه، ثبوت الأنساب بمجرد الشهادة من غير معرفة أصولها.

حكى الباجي في منتقاه وغيره من المتأخرين أن شهادة السماع الفاشي المتواتر تفيد العلم إجماعا.قال ابن القاسم يقطع السب بها وإن لم يعلم الأصل. وقال بعض نظار المتكلمين: «خبر الواحد إذا احتفت بها القرائن أفاد العلم».

وهل يبقى على الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل[9].

وفي إطار نظريته حول العصبية والملك يدرج المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون فصولا في مقدمته تتعلق بالنسب وما في معناه، وفي الفصل الثاني عشر الذي خصّصه للرئاسة في أنها لا تكون على أهل العصبية في غير نسبهم يقول: «وكذلك ما يدعيه أبناء زيان ملوك تلمسان من بني عبد الواحد أنهم من ولد القاسم بن إدريس ذهابا إلى ما اشتهر في نسبهم أنهم من ولد القاسم فيقولون بلسانهم الزناتي أنت القاسم أي بنوا القاسم ثم يدعون أن القاسم هذا هو القاسم بن إدريس أو القاسم بن محمد بن إدريس ولو كان ذلك صحيحا فغاية القاسم هذا أنه فرّ من مكان سلطانه مستجيرا بهم فكيف تم له الرئاسة عليهم في باديتهم وإنما هو غلط من قبل اسم القاسم فإنه كثير الوجود في الأدارسة فتوهموا أن قاسمهم من ذلك النسب وهم غير محتاجين لذلك فإن منالهم للملك والعزة إنما كان بعصبيتهم ولم يكن بادعاء علوية أو عباسية ولا شيء من

الأنساب وإنما يحمل على هذا المتقربون إلى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يبعد عن الرد ولقد بلغني عن يغمراسن بن زيان مؤثل سلطانهم أنه لما قيل له ذلك أنكره وقال بلغته الزناتية ما معناه أما الدنيا والملك فنلناهما بسيوفنا لا بهذا النسب وأما نفعهما في الآخرة فمردود إلى الله وأعرض عن التقرب إليهما بذلك»[10].

وهكذا فإن أغلب الإشارات تدل على أن بني زيان من قبيلة زناتة[11]. وأكثر شيء يعاب على أبي راس في عجالته هذه هو الانتقائية، التي ألزم نفسه بها منذ البداية. وتغافل عن الموضوعية التاريخية، التي تلزمه بإتباع منهج صارم وعلمي، بغية الوصول إلى هدف تركيب الوقائع. ويذهب البعض إلى التشكيك في نسب أبي رأس نفسه حيث قال:« ولكن إذا كنا لا نشك في موهبته كنسابة فإننا نشك في نسبته إلى الشرف»[12].

تظهر الانتقائية منذ البداية، يقول أبو راس:" وإنما أتينا بهذه العجالة تعريفا للجاهل بحقيقة الحال وإجابة لرغبة من رغب في ذلك من الآل وهو التقي النزيه النسيب الحائز من شرف النسب وقدره على الإجمال والتفصيل السيد عبد القادر المذكور قبل قليل فحصّلنا هنا ما يكون معرفا بأصله وفصله ومحله خوفا من أن يحتاج إلى التعريف عند من يجهل أصله ونسبه الشريف فأجبته لما طلب وعملت له عمل من طلب لمن حبا"[13].

فأبي راس وضع هذه العجالة كما هو واضح من قوله لمن رغب، من آله ويشدد بعد ذلك في مدح عبد القادر بن زيان[14] ويشير بوضوح في آخر كلامه إلى أنه حباه بهذا العمل. بالرغم من أن الروايات التاريخية حول ثبوت

هذا النسب لا تخلوا من الطعن. وهي مرتبكة في مجملها عند أغلب مؤرخي المغرب الإسلامي. وأبو راس نفسه ينقل تلك الروايات غير أنه يريد إثبات هذا النسب، يقول:" والقاسم المذكور الذي من نسله بنو زيان اتفقوا النسابة على أنه من ولد عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط"[15]. ولكن اختلفوا في طريق اتصاله به: فقيل أنه القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل وقيل أنه القاسم بن عمر بن محمد بن إدريس بن عبد الله الكامل، وقيل أنه ابن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله وقيل ابن محمد بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله"[16].

ويظهر الاضطراب واضحا في هذه الروايات التي تحاول في مجملها أن تصل نسب بني زيان بالحسن المثنى بشتى الطرق. والناصر في هذه الأوراق يتبع أسلوبا ينتقي من خلاله الآراء التي توافق من حباه فهو مثلا يقتبس عن ابن خلدون ولا يكمل الفكرة حيث يقول:" قلت وفي ابن خلدون أن السلطان يغمراسن بن زيان كان يرفع نسبه إلى مولانا إدريس"[17]. ولو واصل فكرة ابن خلدون لانتهى به المطاف إلى عكس ذلك تماما. فابن خلدون – كما تبين سابقا – من أكبر منكري هذا النسب.

لا يكتفي أبو راس من النقل الحرفي عن المؤرخين الذين يثبتون شرف بني زيان فقط بل يلتزم بمنهجهم كذلك في الكتابة وخاصة التنسي وكذلك يحي بن خلدون، هذا الأخير الذي يقلده الناصر بشكل كبير فهو ينهي عجالته بأبيات كما أنهى يحي بن خلدون فصله بأبيات يقول الناصر:

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزلـــه
كفاكم من عظيم الفخر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له[18]

ويحاول أبو راس الناصر أن يعتمد على مصادر أخرى عند تحدثه عن وقائع تاريخية تهم المغرب الإسلامي. ومن أمثلة هذه المصادر: ترجمان العبر لعبد الرحمن بن خلدون، روضة النسرين في دولة بني مرين لابن الأحمر والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع الفاسي. وهدفه من ذلك – حسبما يعتقد الباحث – محاولة إيهام قارئ هذه العجالة أن كل هذه المصادر تثبت شرف عبد القادر بن زيان.

إلا أن هذا التصور ضيق جدا يرد التاريخ مجرد كونه مجموعة من السير المختارة التي تمدح علّية القوم، وتحمل في المقابل تحقيرا صريحا للعامة المغمورة العاطلة عند هؤلاء عن المحامد والخلال.

الهوامش:

1- الذي حققه محمد بن عبد الكريم وطبع بالمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.

2- أبو راس الناصر، الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، تحقيق سليمة بن معمر، دار صنين ليبيا، ط أولى 2002م، ص: 232.

3- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه وعلق عليه محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1985م، ص: 35.

4- المصدر نفسه، ص: 36.

5- المصدر نفسه، ص: 36.

6- محفوظ في قسم المخطوطات لمكتبة جون رايلاندس مانشستر تحت رقم: 238، وعدد أوراقه 93.

7- أبي زكريا يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائر، ط 1980م، ج1، ص: 178.

8- المصدر نفسه، ص: 190.

9- المصدر نفسه، ص: 191.

10- عبد الرحمن بن خلدون، ترجمان العبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر بيروت، ط 2001م، ج1، ص: 166.

11- بوزيان الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزناتية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط 1993م، ص: 23.

12- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط ثالثة 1990م، ج1، ص: 89.

13- أبو راس الناصر، لقطة العجلان في شرف سيدي عبد القادر بن زيان، مخطوط بحوزة أبو عبد الله شراك الإمام بمسجد الشرايفية بالمدينة الجديدة بوهران، وهو ناسخه، الورقة 3 وجه وظهر.

14- ينتشر أحفاده الآن بسيق وعين تموشنت وأحوازهما.

15- أبو راس، لقطة العجلان، ورقة 2 ظهر.

16- المصدر نفسه، و 3 و.

17- المصدر نفسه، و 2 ظ.

18- المصدر نفسه، و 3 ظ.